

سواء كنت طيباً أم شريراً

سواء كنت طيباً أم شريراً
لتكن ما تكون ..
فلسوف تجنى ثمار ما زرعت

شعرايراني

سواء كنت طيباً أم شريراً

ثم جاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ وكادت أزمة البترول . التي عولها لم استطاعت إيران أن تحتل هيمتها الحالية في المساحة العنيفة : بالنسبة لما كانت أشدها مدهشة .

وقد بدأ الصراع الحقيقي للدفاع عن مصالح الوطن والشعب الإيراني وتحقيق آماليه المنشودة منذ تأميم البترول - فقد كنا أول المنتجين الذي يؤمنون هذه الثروة الطبيعية سنة ١٩٥١ . وكانت نتائجها وخيمة لأن شركات البترول الكبيرة قاطعتنا ولم نستطع بيعه حتى بأخس الأثمان ! ولجئ عن ذلك أزمة اقتصادية وسياسية أبرزها نشاط مصدق المشهود والتي الإرادي القصير للملك سنة ١٩٥٣ . واضطربنا لانتظار رحيل مصدق لإعادة النظام . ولم تستطع إيران إبرام عقد مع اتحاد الشركات البترولية إلا سنة ١٩٥٤ كتنظيم مشاكلاً مؤقتاً ، وكان العقد لمصلحتها فهي التي تستغل الآبار وتستخرج البترول عند الحاجة لزيادة الإنتاج . ولكن منذ ١٠ من يوليو ١٩٧٣ قويت شريكنا إلى الدرجة التي استطعن فيها إبرام عقد جديد تنحكم بمقتضاه إيران في بترولها ومع ضمان حصول الشركات على البترول كلها احتاجت إليه وأصبح بترول إيران للإيرانيين ولكنه ظل يباع بأثمان زهيدة .

وجاءت حرب أكتوبر كحدث مدو وعادل . وبدأت المقاضعة وتعديل الأسعار . وانتهى العهد الذي كانت فيه الدول الصناعية تشتري بأخس الأثمان السلع التي بنت عليها تقدمها الاقتصادي .

وسادت المفرحة إيران وملاً لفخر كل الإيرانيين : فبفضل هذا التغيير الاقتصادي بدأت الخطوات الهامة على طريق التقدم . وبدأنا تنفيذ المشروعات الكثيرة الهامة في كل المجالات لإحياء المجتمع الإيراني :

فرسفت آلاف الكيلومترات . ومددنا السكك الحديدية ، وبنينا المطارات . وأنشأنا شبكة تليفونات تغطي كل إيران . وبنينا المدارس والمستشفيات والسدود للرى والكهرباء ، وأنشأنا الصناعات التعدينية والبتروكيماية وتدفقت عينا الأموال بغزارة .

ولكن كان يجب الحذر من إفاق كل الأموال في الداخل حتى لا نواجه بالتضخم الذي قد يتبع على المدى الطويل كل تقدم .

وأفدت من هذه الفرص وجعلت الحكومة تبتاع أهم المجموعات الفنية الإيرانية التي في الخارج . وكانت رمزاً لاستعادة ثروتنا التاريخية كما كانت استثماراً عاطفياً ومالياً هاماً .

وعن طريق البنك الدولي أقرضت الدول النامية في آسيا وأفريقيا سبعة مليارات من الدولارات كقروض طويلة الأجل بفائدة منخفضة جداً . ثم أعطيت دول العالم الثالث الأكثر فقراً مليارين ونصف المليار من الدولارات ، هذه المعونات الضخمة تثبت تجردنا من الأنانية ، وقد اقترحت إيران إنشاء خزانة عالمية تشترك فيها الدول المنتجة للبترول والدول التي لا تملك ثروات طبيعية . حتى يتعين معرفة الاحتياجات الحقيقية للدول الفقيرة ومحاولة علاج مشاكلها .

والمهم اليوم هو إدراكنا لضرورة عدم الاعتماد الكلي على البترول كوقود فقط . لأن للبترول مئاة المشتقات النافعة . وكما يقول الملك : « البترول مادة نبيلة » . ومن الشاذ أن نستنفده كنه حتى آخر قطرة من أجل التدفئة ، لأن الغاز والكهرباء يستطيع كل منهما القيام بهذا الدور دون خطر وبإنفاق أقل .

ولم يعد سراً أن المخزون أصبح محدوداً ، لذلك حان الوقت للبحث بحدية عن مصادر أخرى للطاقة مثل الشمس والهواء والماء ، وأتمنى من كل قلبى أن يتم هذا سريعاً حتى لا يزيد عدد المراكز النووية .

وبدلاً من أن يتكالب الغرب من أجل حل مشكلة نفاذ البترول . فكروا بطريقة سلبية فى كيفية خفض ثمنه . ونسيت الصحف والخطب السياسية الرنانة والمناقشات الاقتصادية اللاهائية السنوات التى استغلوا فيها موارد العالم الثالث . ونصبوا من أنفسهم جبهة تهاجم منظمة الأوبك قالوا : إنهم يطلبون كثيراً . إنهم يبالغون . إنهم لا يقدرون المشاكل الاقتصادية التى يجرها ارتفاع أسعاره . إنهم سبب التضخم لعالمى . وغيروا الحقيقة وانتقدوا تصرفات الملك . وأصبحنا فجأة كبش الفداء . والسبب فى كل مشاكله المادية . كم هو مريح أن تلقى بجرأتك وأخطائك على الآخرين !

استطابوا الحال هكذا فى أوروبا لفترة طويلة ، فإذا أقبل الشتاء ولم يجدوا التدفئة اللازمة - قالوا لأى إيرانى يصادفهم فى الشارع «إنها غلظتكم وبسببكم نعانى من البرد ولا نستطيع تدفئة منازلنا» ! بالجرأة بعض الحكومات !

ولكن لحسن الحظ ظهر بين الدول المستوردة للبترول رجال متزهون واقعيون بعضهم جامعيون وصحفيون واقتصاديون عكفوا على دراسة الواقع الحقيقى ووجدوا لنا العذر : وبدأت الأبحاث العلمية الأمانة المدعمة بالإحصاءات والبيانات الجادة تقف بجانبنا . بل إن بعض عامة الناس أيضاً بدءوا يدركون أخيراً أننا نحصل على الثمن العادل بالرغم من معاناتهم أحياناً .

وأتعجب لماذا يرفضون الحديث عن حقيقة ثمن البترول ؟ أقول ببساطة : إنه بالرغم من ارتفاع سعره فإن الدول المنتجة ليست هى التى تحصل على نصيب الأسد . والثمن الذى نبيع به بترولنا ليس إلا جزءاً صغيراً مما يدفعه

المسبب لك الغرقي لملء خزان سيارته بالبترين أو لتدفئة منزله ، وما يجعل ثمنه مرتفعاً إلى جانب ثمن التكرير هو الفائدة الضخمة التي تجنيها شركات البترول الكبيرة ثمناً للنقل والتخزين فضلاً عن الضرائب التي تفرضها الدول المستوردة والتي تكون أحياناً أعلى من سعر البترول الخام نفسه . ومنطوق أن ارتفاعاً طفيفاً في سعر البترول الخام في الخليج . لا يمكن أن يحسه رجل الشارع في إنجلترا أو فرنسا . وكل تعديل يخبره الأوبك بضاعفونه خمس وست وسبع وعشر مرات . وليس هذا خطأً ، ولكن أنيسر حجة لإلقاء اللوم على الآخرين . وبالرغم من هذا فليس في طبعنا الانتقام وإلى جانب المعونات الكبيرة التي قدمناها لدول العالم الثالث استثمرنا مبالغ ضخمة لإنقاذ اقتصاد بعض الدول الغربية . وهو أمر ضيعي لأمة لا تريد بناء نفسها على أشلاء الآخرين . ولا بد أن يساعد كل منا الآخر في حدود إمكانياته . وبدأت حملات شعواء باهجوم علينا .

أطلقت بعض الصحف الغربية علينا لقب « أثرياء الحرب » كما لو كنا لانحمل وراءنا قروناً من التاريخ والحضارة . وعندما كنا نبني مدينة برسيبوليس لم يكن يعيش في أمريكا وجزء كبير من أوروبا إلا بربر أو هج يقضون الأكواخ ! والكرم من شيمتنا ، ففي أعماق باكويستان يقع هذا الفلاح المتواضع الذي يقسم الخبز والملح مع أي مسافر بدون مقابل ! فهل نقول عن هذا الرجل « ثرى حرب » ؟

لا ، إن سلوكه وسمو أخلاقه لا يمت للمال بصلة . واعتقد أنه لن يفسدها في أي يوم . وليس من طبعنا التقليل من شأن الآخرين لنبدو كباراً . لقد ننا بعض المساعدة فعلاً في أثناء بعض الفترات العصيبة التي مرت به . ولكن كان هناك دائماً مصورون لينتقطوا صور الأطفال الإيرانيين الفقراء بجوار سلال اللدقيق

والذين الجفاف . فلم نل هبة بدون دعاية . بل كان واجبنا دائماً إظهار العرفان بأعلى صوت وترديد آيات الشكر والامتنان في كل مناسبة . وعندما انقلبت الأوضاع واستطعنا رد الخدمات لم نطلب من أحد أن يفعل مثلاً فعلنا . واعتقد أننا لن نستطيع إنفاق الأموال على هذا المتوال طويلاً . فمذ فترة بدأت سوق البترول تنقلص . وبعناه بأقل مما قدرنا وقل دخلنا . مما أسفر عن بعض المشاكل في الميزانية ولكنها ليست خطيرة . وقد حان الوقت لربط الأحزمة . فقد بدأ الصراع الفعلي في كل مكان في العالم ضد مرض العصر . الإسراف . ولابد من الاحتذاء بهم على المستوى الفردي والقومي . ولكننا نجد مشقة كبيرة في شرح هذا المبدأ لأن الإيراني مبذر وكرم بطبيعته . فإذا دعا عشرة أفراد أعد طعاما لعشرين . ويضئ عشرة مصابيح في مكان تكفيه ثلاثة . وأنا نفسي أضئ الأنوار بدون دأغ أينما سرت في أرجاء القصر . والخطر الحقيقي الذي يواجهنا اليوم هو الارتفاع الجنوني في أسعار السلع التي نستوردها . فبعضها ارتفع ثمنه ١٠٠٪ و ٢٠٠٪ و ٥٠٠٪ في حين انخفضت القوة الشرائية لإيران ٤٠٪ . فإذا بقي أمامنا غير رفع سعر البترول ؟ فإذا رفعناه صرخ العالم كله محتجاً ويندو أن المعادلة التالية هي التي ترضيهم :

أنا أرفع سعر سلعتي وأنت لا . أنا أشتري منك بأسعار زهيدة . وأنت تشتري بالسعر الأعلى ! وهذا مستحيل . . ولا مناص من تعاون الجميع لتحقيق التوازن العادل . وليضبطوا أنفسهم قبل أن يطالبونا بذلك .

فالبتروول وهو أهم مواردنا بعناه سنوات طويلة بأبخس الأثمان . وحين الوقت لننال الثمن العادل . هذا حقنا وسوف نكافح دائماً ليحترمه الجميع . نحن نحتاج إليه لتنمية صناعاتنا وزراعتنا وتطوير التعليم . وتحسين أحوالنا الاجتماعية والانطلاق نحو التقدم ، وإلا فكيف تعيش دول مثلنا ؟ هل يتوقعون

أن نعيش على الزراعة أو على الصحراء والصخور والجبال ؟ وهى كل ما يتبقى
لفلاحينا إذا لم نحسن استغلال عوائد البترول لبناء السدود وحفر الآبار وإزالة
ملوحة مياه البحر .

تفتقدنا بعض الصحف العالمية لأن هناك إيرانيين يعانون من سوء التغذية أو
يسرون حقبة الأقدام أو لأن معدلات وفيات الأطفال والأمية في إيران أعلى منها
في أوروبا ، فإذا حاولنا استغلال أهم ثرواتنا لعلاج مشاكلنا انتقدونا أكثر !
بعد عشرين أو ٢٥ سنة على الأكثر سوف يتفد البترول . فكيف يعيش
الإيرانيون ؟ هذه هى المعضلة وهذا هو شاغلنا الأول ، ولكنهم يصورون منظمة
الأوبك وحشاً كاسراً يبحث عن تعاسة العالم . وبالرغم من ذلك يرفعون ثمن
القمح و ثمن الأسمنت و ثمن السكر و ثمن المواد الصناعية حتى ليبدو ارتفاع البترول
بنسبة ١٥٪ تافهاً . والحقيقة أن نظامهم الاقتصادى هو أساس التضخم أما
البترول فدوره لا يتعدى ١٪ من أسباب التضخم .

وينسى بعضهم أنهم يدينون لما هم عليه اليوم من تقدم ورفاهية إلى موارد
المستعمرات التى حكموها واستنزفوها منذ قرون في آسيا وأفريقيا ، ولكنها ذكرى
أثمة محوها من ذاكرتهم ، ويجب أن يفهم الجميع أن العالم لن يتقدم مادامت
هناك فروق جوهرية بين الدول وبين القارات ، فمن غير المقبول أن تلقى بعض
الدول بالطعام من النوافذ على حين يموت بعض جوعاً .. وكأئنا الدماء التى
تسرى في عروقهم ليست هى دماء الآخرين نفسها ، لأنهم اعتادوا السعة
وغيرهم يعانى من البؤس ! كيف نفهم مثل هؤلاء أن كل إنسان أحمر أو أسود
أو أصفر مساو لهم ؟

ومنذ فترة أصبح الموضوع الوحيد الذى يستهوى الصحافة الغربية هو حقوق
الإنسان ، واختارتنا منظمات مثل منظمة العفو العالمى هدفاً لهجومها ،

ولكن لماذا إيران ؟ ولماذا بعد أكتوبر ٧٣ بالذات ؟

من الغريب أن الهجوم يبدأ دائماً عندما نتحدث عن تصحيح أثمان البترول ، وبالصدفة الغربية أيضاً يبدأ الحديث عن مظاهرات الطلبة في طهران . ولا أتكلم عن الشيوعيين بصفة خاصة ، فبالرغم من أننا على علاقات وثيقة بالدول الشرقية والاتحاد السوفيتي سياسياً واقتصادياً فإننا ندرك جيداً أنهم في أعماقهم يرمون إلى نشر الشيوعية في العالم كله ، وسوف يستخدمون كل الوسائل من أجل نشرها في إيران .

إلى جانب أن سياستنا البترولية لا ترضى الكثير من الحكومات فإن بعض الشركات الدولية الكبرى ذات التأثير الضخم على الصحافة والأوساط السياسية تحاول إخضاعنا بأي وسيلة . وبعد أن كانت إيران لا يعرف عنها إلا أنها في آسيا ويحكمها شاه إيران وبها سجاجيد إيرانية وكافيار فقط . هبت كالأعصار بقوانين للإصلاح والثورة والتقدمية بدت ثورية أكثر من نظم كثيرة تدعى الثورية . صار حديث ملكها على النيرات قوى الكلمات . يتجادل بخدة في أسعار البترول . ويؤثر في سياسات دول أخرى كثيرة .

فإيران اليوم ذات وجه جديد تتقدم بخطى سريعة ، تشتري تقريباً كل ما تحتاج إليه . وتبدى رأياها واضحاً صريحاً ، وتتبع سياسة وطنية مستقلة ، وهذا لا يرضى الكثيرين وخاصة الغرب الذي ينظر من برجه العاجي إلى الدول الآسيوية الأفريقية : فكيف نجرؤ اليوم تلك الدولة الصغيرة أن تكون لها آراء حرة مستقلة لا يملها عليها أحد ؟ كيف يصرخ زعيمها عالياً ؟

« إذا كان اقتصادكم يواجه صعاباً فليس بسبب البترول ، إنه نظامكم السياسي الأعوج ، ومشاكلكم هي الدليل الحى على أنكم لا تطبقون الديمقراطية الحقيقية ، وليس هناك ما يدعوننا لتقليدها »

كل هؤلاء الذين ظلوا قروناً طويلة يعتقدون أنهم وحدهم يعرفون وغيرهم لا يعرف . وأن قانونهم فقط ينبغي أن يسرى . كانت الصدمة شديدة عليهم . وانطلقوا بعد كل تصريح يهاجون ويخعلون من الشرارة حريقاً هائلاً فايران التي ظلت تعاني قروناً من السيطرة الأجنبية أدركت أخيراً أهمية ثرواتها الطبيعية وأهميتها الجغرافية ، ولذلك تأتى أن تكون خادماً مطيعاً لأى دولة أكبر ورفضها لا يعجبهم . هذا يحاولون كعادتهم زرع الإرهاب والفوضى فقط ليبغفونا الرسالة الواضحة : نحن ما زلنا الأقوى ، وإذا حاولتم الحركة فسوف نؤذيكم !

نعم نحن نعرف أنهم يستطيعون إيذاءنا حقاً . لأننا لانملك وسائلهم لاصحافتنا ولا تليفزيوننا يضاهيهم . ثم هناك الإرهاب الدولى الذى بدأ يظهر فى كل مكان .

والله وحده يعلم لماذا يشترك كل هؤلاء الشباب فى مثل هذه الأنشطة الهدامة ؟ إنهم لا يعتقدون أفكاراً محددة . يبرزون رءوسهم ويخالون أنفسهم ثوريين . يزرعون الموت بحجة التعبير عن آرائهم ولكن ما لا يعرفه الكثيرون أن فى إيران حرية . وأن النقد مباح . فمن حقت أن تكون مع أو ضد أى مظهر سياسى بشرط أن يكون لديك ما يستحق أن يقال وألا تلجأ للعنف أو القتل أو الخطف ولو كان فى آرائهم ما يستحق أن يسمع لاقتنع بها الناس وربما أمكن لأفكارهم أن تتحقق يوماً . وإذا رأى أحد أن بعض تطبيقات الملك السياسية خاطئة مثل الإصلاح الزراعى أو منح عمال المصانع ٢٠٪ من الأرباح أو نظام التأمينات فليقدم . لأن ذلك يستحق المناقشة . وإذا وافقت أغلبية الشعب على آرائه فسوف نغيرها . فالتعبير والنقد مباحان . ولكن ليس إلى حد الهتاف بسقوط الملك .

وهذه الجماعات الإرهابية التي تكونت في إيران لا تقدم أى بديل ولا تشد سوى زرع القوضى والغوغاء . وهم يتلقون تدريبهم على العنف في بعض الدول الأجنبية . واعتقد أنهم يصطادون في الماء العكر فحتى المبدأ السبسي المنطقي الموحد متعذر . ولدينا الدليل : فهم ينضمون لهذه الجماعة المرافضة أو تلك دون الاستناد إلى مبدأ إنساني إلا لرغبة في التدمير وإشاعة القوضى . فلسفتهم هي لرفض ولايهم إذا دفع الأبرياء الثمين .

وفي آخر لقاء للمئات مع الصحافة الغربية اعترف بأن في إيران ٣٠٠٠ معتقل سياسي . فماذا تفعل لأناس انضموا لمنظمات إرهابية دولية تخطف وسفك الدماء ؟ ماذا يبقى أماننا سوى القبض عليهم لمنعهم من الإيذاء ؟ لو كان البوليس الفرنسي قبض على الإرهابي « كركوس » لما استمر ضيقنا يعيش فدراً ومنظمة « بادر » الألمانية . ماذا لا تقدم إلا القتل والجريمة ؟ ليتظف نفسه أولاً كل من يحاول تطيخه بالأوحال . لأنه سوف تستमित دتما بكل قوتنا من أجل محاربة الإرهاب .

وقد يسألني بعض ماذا ٣٠٠٠ معتقل سياسي ؟ ولماذا يرتقى بعض في أحضان العنف والجريمة ؟

إجابتي بسيطة جداً فقد انصب اهتمامنا الأساسي على التقدم المادي حتى أهملنا العلاقات الإنسانية . ولم نحسن إبراز الجهود الشخصية التي أجزأها ولا التقدم الكبير الذي حققناه في كل المجالات هذا يجهل بعض في الداخل . كما في الخارج . ما حققناه وتجهيز الدعايات المغرضة الفرص للعبث ببعض العقول الضعيفة لإدانة النظام والثورة عليه . وقد يسافر بعض للخارج فيرى علماً آخر في أمريكا وأوروبا فينسى مسأوته وينبئ بالمسئولية على نظامنا كله . ولا يخيل كم من الصبر والجهد والمعاونة تحتاج إليها دولة نامية من كل فرد لبناء نفسها ؟

ويطلقون أرقاماً خيالية فيشيرون أن في السجون الإيرانية ١٠٠ ألف أسير .
مع أننا أدخلنا الصحفيين داخل السجون ليستجوبوا أناساً ظنوا أننا عذبناهم أو
قتلناهم ، فأين هي مقالاتهم المنصفة ؟

الأنباء التي تصدر ضد إيران هي فقط الجذيرة بالصفحات الأولى !
لأدعى أننا لم نرتكب بعض الأخطاء .. ولا دولة في العالم لم يواجه
البوليس فيها الجريمة بالعنف فكيف يواجه البوليس مجرمًا شرساً فجر قبله في
مكان عام قتلت أبرياء ثم ينكرها بوقاحة ؟
وأعترف أننا لانجيد الدعاية لأنفسنا ولا نجيد عرض مثل هذه الموضوعات
فيدلى البوليس للصحف بتصريحات مقتضبة مثل .

« تم تبادل إطلاق الرصاص بين البوليس والإرهابيين وقتل اثنان من
الإرهابيين » . مما يوحى بتعمد قتلهم . وقد حدثت المسئولين بهذا الشأن وقلت
لهم : « لماذا لاتستدعون التلفزيون والمصورين والصحفيين لحظة وقوع الحادث
ليكونوا شهوداً على حسن نوايانا في حالة حدوث نلاحم بين الشرطة والمجرمين » ؟
حينما زرت عمان في نوفمبر الماضي . صور البوليس فيلماً كاملاً لهجوم
الإرهابيين على أحد الفنادق . فشاهد الجميع أمام أعينهم الرصاص والنار
والجرحى يهرعون للخارج . لهذا تعاطف الشعب ورجال المظلات والقوى
الخاصة التي هاجمت الإرهابيين أو قتلهم أو قبضت عليهم . ولم يستطع أحد أن
يشك في حسن نوايا الحكومة .

مثال آخر لبعض أخطائنا . منذ أيام أطلق سراح بعض المعتقلين السياسيين ،
كان من بينهم واحد حاول خطفني أنا وولي العهد . يومها أظهره في التلفزيون
يقرأ خطاباً مكتوباً يشكر فيه للملك تسامحه . وما كان يجب أن يفعلوا هذا . فقد
ظن الجميع أننا أملينا عليه هذه الورقة بالرغم من أنه كتبها بنفسه .

ومفهوم الحرية في رأيي يختلف في دولة صناعية ومفهومه في دولة نامية .
فإذا كانت حرية التعبير حقاً أساسياً اليوم في فرنسا . « في بلوخستان تعني شيئاً
آخر : فأهل بلوخستان يريدون الطعام ليأكلوه والأراضي ليزرعوها . والرعاية
الطبية والمدارس للأطفال . وربما بعد سنوات ستكون الصحيفة من أهم
مقومات حياتهم ولكنها ليست شاغلهم الأساسي اليوم . ولا نستطيع تقليد
الغرب لمجرد أنهم اختاروا نهجاً معيناً . فضلاً عن أن المشاكل الاجتماعية وصور
الفساد المنتشرة في المجتمع الرأسمالي ليست مثلاً نخشى به . وسوف يأتي اليوم
الذي يتحكم فيه الإيراني في مستقبله من أجل مستقبل إيران وفي انتظار هذا
اليوم لا أدعي أننا دولة ديمقراطية ولكننا دولة على طريق الديمقراطية » .